ما وراء القول:

حين سال الرسول صل الله عليه وعلى آله وصحبه عبد الله بن رواحة " كيف تقول الشعر إذا قلته؟ فقال عبد الله أنظر في ذلك ثم أقول "[1]،ويبدو أن القصد من النظر التمعن هو التركيز في الفكرة و الموضوع المراد الكتابة عنه ، ويكون جوابه مبنياً على أساس فهمه للسؤال ، ولا اعتقد أن المراد من السؤال الوقوف عند هذه الإ جابة بل إن الإجابة ذاتها تجرنا إلى أن ندقق فيها، فهي مدخل لفكرة أعمق، أراد الرسول صل الله عليه وعلى آله وصحبه ربطها لنا بفكرة الحالة المُصاحبة لقول الشعر ، هي حالة لطالما أكدت عليها العرب في جاهليتها ونسجت حولها الكثير من القصص، وهي ذات الحالة التي حاولت قريش مراراً وتكراراً إلصاقها في الرسول صل الله عليه وعلى آله وصحبه، وما يُمكن فهمه من السؤال هل يعتريك شيء وأنت تقول الشعر ؟ ولم يُشر ابن رواحة إلا إلى الحالة العقلية لأن النظر / التمعن في القول قبل أن يُصبح مُشاعا وقابلا ً للمُحاكمة هو سمة عقلية بعيدة عن التلبس أو الإلهام. أما الفكرة الأ خرى التي أراد طرحها هي: يا ابن رواحة أنا أسألك عن شيء لم أزاوله وليس لي فيه خبرة صياغية، فقد أكون مُتذوقاً له لكني لم أكن يوماً ممارساً لعملية كتابته، وليس لي علاقة بتلك الحكايات المنسوجة حوله وحول كتابته، إذ لا ينبغي لي.

وبعد هذا ربما سيسأل سائل هل أن كلّ مَن ينظر ويتمعن في موضوع ما قادر على أن يكون شاعراً؟ والجواب هنا يتعلق بالاختلاف العقلي الذي يحكم النظر وزواياه ، فلسنا على وتيرة واحدة في النظر إلى الأشياء والوصول إلى ماهيتها الحقيقية ، ثم إن إعادة صياغة الأشياء مهمة صعبة لا تتأت للكل ، وإن فليس بذات القدر من القدرة بالنهوض والإلمام بكل جوانب المنظور إليه ، ثم إن تلك الإعادة تحتاج إلى مستوى عال من الثقافة فيما يخص فهم البنيات العقلية وطرق التفكير للمجتمع المُراد مخاطبته ، وإلى قدرة لغوية خاصة فيما يتعلق بالصياغة التي تنهض بلملمة الموضوع المطروح ، وليس التشعب فيه ولاسيما في الصياغات الشعرية . وأعتقد أن حادثة أبي نؤاس (146-198 هـ)[1] مشهورة في كيفية قوله للشعر فإن جل ما احتاج إليه هو النظر والتمكن من الأدوات. بل أن الجاحظ وصفه " ما رأيت رجلا أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبي نؤاس" [1] وأعتقد أن العلم باللغة والتمكن منها ومعرفة اللّهجات وضبطها لسانيا لا يحتاج إلا إلى إصرار معرفي، وليس ثمة ما هو خارج عن الإرادة. وثمة أمثلة كثيرة [1] في مسالة التمكن من اللغة والقدرة على الصياغة الشعرية التي تؤكد على أهمية الجانب المعرفي والاستعداد قبل الخوض في فن القول الشعري.

وكان الرسول صل الله عليه وعلى آله وصحبه يحُد الشعر بأنه " كلام مؤلف "[1]، أي إنه أفكارٌ تطرح عن طريق اللغة ، ولكنه هنا وجه ضربة قوية للأفكار السائدة عن مكانة الشعر وقيمته ، ولاسيما أن العرب في الجاهلية كانوا يضعون الشاعر

وشعره في مكانة يلفها نوع من التقديس ، وكأن ثمة قوى خارجية تلازمه وتعينه في القول ، ولكن الضربة الأولى كانت حين أعاد الرسول صل الله عليه وعلى آله وصحبه الشعر إلى نوعه من دون تمييز عن غيره من بقية الكلام ، وبالتالي فإن تلك المكانة التي يمنحها الشعر لقائله باتت غير موجودة (فهو كلام) قابل لأن يعتريه ما يعتري الكلام من الصواب ومجانبته ، وهو مؤلفٌ بطريقة مخصوصة ولكنها لا تمنحه أفضلية على بقية الكلام لأن القيمة الحقيقة للكلام ليس في طريقة التأليف وإنما بما يحمل من مضامين صحيحة صيغت بطريقة تظهر حُسنها .

إما الفكرة الأخرى فهي حين أعاد الشعر إلى الكلام فإنه رفع عنه الاتصال بقوى غيبية ، وليس ثمة مجهول وراء القول ، وليس هناك عبقر* ، وبالتالي قطع الصلة للشعر بعالم آخر غير عالمنا ، وغير ما يُمكن أن تقدمه المعرفة باللغة وفنون القول ، وهكذا كان الذكاء في أن ثمة معرفة بشرية وراءه ، وأن الصلة الوحيدة بالسماء ستكون من نصيب القرآن الكريم ، وهو الوحيد الذي تقف خلفه قوى غيبية ، وهذه الفكرة حاول كفار قريش التعمية عليها أمام عامة الناس ، وخلط الافكار ليقولوا للناس أن القرآن لا يختلف عن الشعر من حيث الأدوات والمرجعية . فالرسل أصحاب رسالة وهم واسطة المُرسل إلى المرسل إليه مع وجود قناة اتصال وسنن قابلة للفهم بين الطرفين، وهذا ما يتوفر في الآيات القرآنية المباركة، كما يتوفر في الشعر، ولكن مع انتشاء الشاعر حين يقول الشعر وفخر قومه به، لا تكون المسألة كذلك عند الرسل فهم يركزون دائماً على أن ما يقولون مصدره علوي، وأنهم مأمورون فحين تختلف مرجعية الفعل القولي من المعروف إلى المجهول ، ومن السفلي إلى العلوي ، ومن محدود المعرفة إلى مطلق المعرفة في كل شيء ،فإن المجهول والعلوي ومطلق المعرفة سينتج نصاً مختلفاً في كل شيء مع احتفاظه بعناصر المعرفة الإنسانية لتأدية مبتغاه.

وقد كان الرسول صل الله عليه وعلى آله وصحبه فطناً للدور المهم الذي يتمكن الشعر والشعراء من أداءه ففهمه لا بوصفه نبياً يوحى إليه بل لأنه فرد عاش في مجتمع ملماً بثقافته، عارفاً بطباعه وبتشكلات البنيات المعرفية داخل البنيات العقلية ، وكيف يتم ترجمتها إلى سلوكيات ونظرات للواقع ، كان يعي جيداً ماذا يعنيه لإمة تقضي الكثير من حاجاتها شعراً ، ولم يغب عنه أهمية التوظيف للفن الوحيد المتأصل في نفوس العرب، والذي يؤثرون بوساطته على الأخرين ، ويتأثرون به ، فهو كما يخرج من الذات يعود إليها ، فلقد كان الشعر يمثل المعرفة لمظاهر الحياة ، وليس من الصحيح ضرب تلك المظاهر ، ولكن التقنين والتوجيه ورسم الحدود لها أمر وارد ، كما أن تقبل الدين الجديد لما سلف على وفق ذلك شيء ممكن، وبدلا ً من خسارة القوى الكلامية الوحيدة الفاعلة فإن عملية دمجها على وفق محددات مرسومة شيء مُمكن أيضاً، لخلق قوة كلامية تتبنى الدعوة الجديدة مقابلا ً لتلك التي ستبقى مُتبنية للأفكار القديمة، ولا سيما أن ثمة صراع لا بُد منه وسيحتاج كل طرف إلى إليها ، وليثبت الدين الجديد أنه ليس إقصائياً ، وأن المدينة الإسلامية هي المدينة الفاضلة فعلا حين تضع الأشياء بموضعها المناسب، أفضل من المدينة الفاضلة التي حاول أفلاطون[1] إنشاءها ولم يفلح، إذ لم ترسم دوراً للشعراء يقومون به ، بل

طردتهم بحجة تزييف الحقيقة ، وإنها لديهم أشبه بملعقة في كاس ماء، وهكذا كانوا خارج الديمقراطية اليونانية في حين تقبلتهم المدينة الجديدة على الرغم من عدم وضوح الأدوار في الوهلة الأولى ولكن كانت متيقنة لأهميتهم النابعة من قدرتهم على الدفاع والتوضيح عن الأفكار الجديدة فكان الكلام يقابل الكلام . فهو جهاد كما يراه، فحين طرح كعب بن مالك توجساته فيما يخص الموقف القرآني من قولهم كان الرد من الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّمَا تَرْمُونَهُمْ بِنَضْحِ النَّبْلِ "[7]. وهذا دلالة على قوة الكلمة وتأثيرها عند قوم كانوا يزاولونها ويفهمون مكانتها.